الفكر السياسي
عند إخوان الصفا وخلان الوفا

middle-east2017@hotmail.com
مركز بحوث الشرق الأوسط
M.E.R.C
ISSN 0536-9504

أ.م.د. أحمد عدنان عزيز
كلية العلوم السياسية- جامعة بغداد

م.د. أحمد عبد الكريم عبد الوهاب
كلية العلوم السياسية- جامعة بغداد

الملخص :

إخوان الصفا وخلان الوفا جماعة سرية باطنية ضمت مفكرين عاشوا بالبصرة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، أفكارهم ذات نزعة فلسفية سياسية، وميول شيعية (إسماعيلية)، كانت غايتهم إسعاد النفس. كتموا أسماءهم وهويتهم، وعمدوا إلى الكناية والإشارة والإيماء والإيجاز في مصنفاتهم، وصاغوا مذهبًا زعموا أنه وفَّق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة، وضمَّنوا هذه الآراء كتابًا عرف باسم:"رسائل إخوان الصفا" التي تشتمل على ٥٢ رسالة مقسمة إلى أربعة أقسام، منها ما اشتملت على الإلهيات والمعتقدات وضحوا فيها عقائدهم حول الأديان والنبوة والإمامة والفلسفة والأخلاق، بما يعبر عن فكرهم السياسي.

middle-east2017@hotmail.com
مركز الشرق الأوسط
M.E.R.C
ISSN 2536-9504

Abstract:

The Ikhwan al-Safa and Khalan al-Wafa are an underground underground group of intellectuals who lived in Basra during the second half of the fourth century AH. Their ideas were of a philosophical and political orientation, and Shi'i tendencies (Ismailism) were intended for self-gratification. They wrote a book known as the "Letters of the Brothers of Safa", which contains 52 letters divided into four sections, including those which included the Divinity, and beliefs and expounded their beliefs about religion, prophecy, imamate, philosophy and ethics, reflecting their political thought.

middle-east2017@hotmail.com
M.E.R.C
ISSN 2536-9504

المقدمة:

أسهمت الحضارة الإسلامية في كثير من الإنجازات التي حققتها البشرية، لكن هذه الإسهامات ظلت غير معروفة لدى الكثيرين، واستفاد منها الآخرون، لاسيما الغرب.

وهنا تبرز أهمية هذا البحث عن الفكر السياسي لإخوان الصفا وخلان الوفا، بتموجاته الفلسفية والأخلاقية والسياسية؛ إذ نتوخى تسليط الضوء على هذه الجماعة وعلى إسهامها في الحضارة الإسلامية في سياقها السياسي والفكري والفلسفي تحديدًا، والذي غيب في الفكر المعاصر تمامًا.

إن رداء السرية على أفكار هذه المجموعة منذ بداية ظهورها ونقاط الجدل التي أُثيرت حول مصادر هذه المجموعة المتمثلة بالرسائل والتي أصبحت مرجع خلاف بين كل علماء الإسلام والغرب، بالإضافة إلى مسألة هوية المؤلفين، أو ربما المؤلف الواحد، ومكان وزمان تدوين أعمالهم ونشرها، وطبيعة هذه الأُخوية السرية ومظهرها الخارجي المتمثل بالرسائل، أو غيرها من المسائل الثانوية التي طرحت بدون أجوبة تاريخية محددة، مثلت أهم الدوافع للبحث في مثل هذا الموضوع، فضلًا عن ذلك نسعى هنا إلى إنقاذ هذه الجماعة الفاعلة في الحضارة الإسلامية بكل تجلياتها من الإهمال والنسيان.

إذ إن هذه الجماعة تمثل مدرسة عقلانية للمعتقدات الباطنية الفلسفية التوحيدية في الإسلام، سخروا كل ملكاتهم العقلية والروحية لصلاح الدين والدنيا، ووقفوا في وجه التيارات المتصارعة، داعين إلى الفضيلة والتمسك بأُمور الدين الصحيح، وجوهر القرآن ضمن إطار الوحدة الدينية، وهذا مايلاحظ في رسائلهم، لكن الاضطرابات وأجواء الإنحراف والتآمر وضعف الدولة العباسية وسيطرة الأتراك على مجريات الأوضاع العامة بعد مقتل الخليفة المتوكل، دفعت هذه الجماعة إلى التقية والتستر عن هويتهم وآرائهم، والابتعاد عن المجالات العامة والخاصة.

انطلاقًا من هذه الأسباب، سنبحث الموضوع في خمسة محاور أساسية تم بناؤها وفق الفرضية الآتية :(إن جماعة إخوان الصفا مثلوا حركة باطنية عقلية دينية، لاتزال أفكارهم العامة الظاهرة والباطنة مثارًا للجدل والتخمين والاستنتاج، يكتنفها الغموض والتعقيد والاستفسار والتساؤل، إلا أن لها إسهامًا واضحًا في الفكر السياسي والفلسفي والأخلاقي). ولهذا سنبحث في المحور الأول، محاولة تحديد هوية إخوان الصفا وأهميتهم ومصادر رسائلهم التي هي مجمل أفكارهم. وفي المحور الثاني، نبحث في الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا. أما المحور الثالث: فنعالج مسألة الأخلاق عند إخوان الصفا، وعلاقتها بفكرهم السياسي. وفي المحور الرابع نتناول موضوع النبوة عند إخوان الصفا، وفي المحور الخامس: نبحث موضوع الإمامة عند إخوان الصفا؛ لنضع خاتمة لهذه الجوانب الأساسية في فكر إخوان الصفا وخلان الوفا.

المحور الأول

هوية إخوان الصفا وأهميتهم:

إن محاولة تحديد هوية هذه الجماعة يعكس جانبًا مهمًّا وأساسيًّا من أفكارهم ومواقفهم وسلوكياتهم، وإن كان ليس من السهل ولا العسير جدًّا تحديد هويتهم، حيث سنجد أنفسنا في مواجهة عدد كبير من الآراء المتناقضة للمهتمين بالموضوع.

ويلاحظ من خلال الدراسات القديمة والحديثة، إن العلماء الذين حاولوا معرفة جماعة إخوان الصفا لايزالون لا يجزمون في معرفة حقيقة هذه الجماعة، ولم يتوصلوا إلى معرفة الحقيقة التي تظهر بجلاء شخصيات هذه الجماعة السرية، التي لعبت دورًا فعالًا في الفكر الإنساني.

تذكر مصادر إسلامية عديدة، أسماء جماعة من علماء البصرة على أنهم مؤلفو الرسائل. فابن القفطي يذكر في كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء[١]، نقلًا عن ابن حيان التوحيدي، إن مؤلفي الرسائل هم: أبو سليمان محمد بن معشر البيستي

ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي، وزيد بن الرفاعي وغيرهم.

وأورد الشهرزوري من ناحية أخرى قائمة من المؤلفين مختلفة نوعًا ما ذكرها في كتابه "نزهة الأرواح" [٢] ، وتضم كلًا من: أبي الحسن علي ابن وهرن الصبابي، وأبي أحمد النهرجوري، وعوفي البصري وزيد بن الرفاعي ، وأبي سليمان محمد بن معشر البسطي المعروف بالمقدسي.

لم يقتصر اختلاف وجهات النظر على مؤلفي الرسائل فقط، بل شمل أيضًا أمر انتمائهم المذهبي داخل الجماعة الإسلامية. فقد وجدت المناقشات الحديثة صدىً لها بين باحثي العصر الوسيط المسلمين أنفسهم. فابن القفطي يبدي وجهة نظره حول الموضوع، ويرى إن إخوان الصفا هم من أتباع المدرسة المعتزلية ذات المنهج العقلاني[٣].

لكن إذا ما أخذنا الاحترام الكبير الذي يكنه الإسماعليون للرسائل[٤]، واستخدامهم الواسع لها، وخاصة في اليمن، وحقيقة: إن هذا "العمل يتقبله الإسماعليون كجزء من مذهبهم، ولايزال يعتبر باطنيًا.." [٥]، بعين الاعتبار فلن نستغرب حين نجد إن معظم العلماء المحدثين من المسلمين وغير المسلمين، يزعمون إسماعلية مؤلفي هذا العمل، فقد أورد عارف تامر، على سبيل المثال، رواية مفصلة ومقنعة حول طبيعة الرسائل الإسماعلية مطلقًا على محتوياتها اسم "الفلسفة الإسماعلية"، ويعتقد عمر الدسوقي أن الشيعة الإسماعلية أحد أئمتهم مؤلف الرسائل، وهو الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، واعتقادهم هذا يدل على ما لرسائل إخوان الصفا عندهم من منزلة رفيعة، وإنها تحوي تعاليم الطائفة [٦].

ويعتمد عادل العوآ منهجًا مختلفًا نوعًا ما مبنيًا على الدراسة التحليلية للرسائل. فبدلًا من ربط إخوان الصفا بأية جماعة معينة، نراه يطلق عليهم اسمًا غامضًا هو " مابعد المعتزلة " [٧].

ومن ناحية أُخرى، يمكن القول عن إخوان الصفا إقتربوا إلى حدٍ ما نحو الصوفية، خصوصًا سلوكهم في مجال الأخلاق، مثل الزهد والتوكل والصبر والإخلاص والإيمان، وضرورة أن يبلغ الأخ أسمى الدرجات من فناء الشهوات ومن صفاء النفس والقرب من الله، وهم هنا يقتربون من الصوفية في أخلاقهم الجماعية، حين يفيضون في ذكر آداب الصحبة ولزوم الصديق [٨].

واقتراب إخوان الصفا من المعتزلة حينًا ومن الصوفية حينًا آخر، يدعو إلى التساؤل عن مدى نجاحهم في التلفيق بين الاتجاهين المتباينين، ولقد أشاروا إلى أنهم لا يعادون علمًا من العلوم؛ إذ فرضوا على أتباعهم ومريديهم الذين ينهجون نهجهم في العلوم العرفانية الماورائية أن لايعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصبون على مذهب من المذاهب، بل إن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعًا، وهدفهم من وراء ذلك زرع الأفكار الحرة في العالم الإسلامي، وتشجيع الناس على المجاهرة بها، بغية إصلاح مافسد من الأُمور الدينية والإجتماعية، وإن كان يجدر الإشارة إلى انتقادهم لعلماء الكلام عامة وإلى المعتزلة خاصة بصدد قولهم باستحالة رؤية الله في الآخرة [٩]، ولكن ذلك لم يمنع أن يرى القفطي، إن مذهب هذه الجماعة ومن خلال مصادرهم المتمثلة بالرسائل الإحدى والخمسين أن يضعهم أو يصنفهم من بين متكلمي المعتزلة في العصر الأول [١٠]، كما ذهب دي بور إلى إن رسائلهم تجمع بين مذاهب الشيعة والمعتزلة [١١] وذلك يعبر عنه من خلال الإشارة إلى دور الإمامة[*] في القيادة مما يجعل اتجاههم يتشرب بالعقائد الشيعية وخاصة الإسماعلية [١٢].

لكن على الرغم من هذه المشارب المتنوعة في تحديد هويتهم، إلا إنهم يشتركون في المنطلقات الإصلاحية الاجتماعية والسياسية وجسدوها برسائلهم التي بثوها بين طبقات المجتمع، دون أن يشيروا إلى مصنفيها خشية أن يتعرضوا لنقمة من بيدهم الصولجان والسلطة، فقلبت مفاهيم الناس رأسًا على عقب، وأحدثت بينها من التغيير والتبديل والتفاعل مالا تزال آثاره باقية إلى اليوم.

في خلاصة تحديد هوية ومذهب جماعة إخوان الصفا، يمكن القول إنه من المستبعد أن يكون معتزليًا قد شارك في تحرير رسائل إخوان الصفا، غير إن هذا لايمنع أن يكون فيها بعض الآراء توافق مذاهب المعتزلة بالقدر الذي تسربت به أُصول المعتزلة إلى عقائد الشيعة عامة، اثني عشرية وإسماعلية، فهنالك آراء تقرب إخوان الصفا من الشيعة الإسماعلية من حيث العقائد الباطنية والقضايا السياسية، لكن مع ذلك، فإن للرسائل إتجاهات فلسفية أكثر مما فيها من أُصول الاعتزال والإسماعيلية، فلقد أرادوا المزج بين الفلسفة والشريعة وهذه انفردوا بها في عصرهم [١٣].

هذا التحديد يدفعنا إلى تحديد المنهج للإخوان وتعريف لسلوكياتهم لكي يكتمل الربط بين الهوية والمنهج.

إخوان الصفا وخلان الوفا، هم جماعة اجتمعوا على تأليف كتاب فيه إحدى وخمسون رسالة كان مضمونها الأساسي ينص على أن الانتساب إلى الفلسفة كان مرادفًا إلى الانتساب إلى التعطيل، مما دفعهم إلى عدم إظهار أسمائهم لاتهام كتابهم بالزندقة والتعطيل، كما تناولت رسائلهم مواضيع في مبادئ الموجودات وأُصول الكائنات والأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته والكون والفساد وعلم النجوم وتكوين المعادن وعلم النبات وأوصاف الحيوانات وتركيب الجسد والحاس والمحسوس والعقل والمعقول والهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الأخلاق، ويستدل من المصادر التاريخية إن جماعة إخوان الصفا لم يصنفوا سوى رسائلهم تلك، ورسالة الجامعة فقط، وبقية ماصنفوه غير معروف ولايدري به أحد، وإن أشاروا هم في رسالتهم الجامعة إلى كتب أخرى لكن لم يعثر عليها...[١٤].

هذه الجماعة " الفرقة " اجتمعوا في جنوب العراق وخوزستان، وجعلوا نصب أعينهم، تنوير أفكار عامة الناس وبث العلم بين جميع الطبقات والكفاح ضد الجهل لترقية مجتمعهم الذي كانوا يعيشون فيه خاصةً والمجمع البشري عامة [١٥].

إن الوحدة المذهبية الأساسية التي انطلق منها إخوان الصفا دعوتهم إلى الإخاء وبثهم العلوم الفلسفية والطبيعية، وكذلك قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات والضلالات ولا سبيل إلى تطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية... (١٦).

أما أهمية إخوان الصفا التاريخية، فتتمثل بطرحهم المبدأ الفكري القائل: إن الله سبحانه ترك أمر الشريعة وفرائض الديانات ناقصة حتى يحتاجوا أن يتموها بآرائهم " التي وصفت حينها إنها فاسدة "وقياساتها اجتهادهم (١٧). فهم جاروا رأي الدين في أنه محدث؛ والسبب لإعطائهم دورًا للفلسفة في الدين. الذي له جانبان: جانب اعتقادي وعملي وهو الشريعة، وعند مقارنة الإخوان بين الدين والفلسفة فهم يقصدون بالدين جانبه النظري الاعتقادي، أو الجانب الإيماني، ويرى الإخوان أنه ليس بين الدين والفلسفة تعارض أو نزاع، رغم اختلافهما بالأُصول لكنهما يتفقان في الفروع أي إصلاح الدين والدنيا جميعًا، فأما غرضهم الأقصى، فهو نجاة النفوس من محن الدنيا وشقاوة أهلها وإيصالها إلى سعادة الآخرة ونعيم أهلها (**).

وهنا يتضح اتجاههم نحو إطفاء الشريعة بالفلسفة وهذا اتجاه بحد ذاته يستبطن هدف سياسي غير محدد (١٨) ، وأيضًا هدف تربوي يتضح من خلال الوصول بملكات الإنسان الكامنة إلى مرحلة الغثمار والكمال كي يتمكن من النجاة ونيل الحرية الروحية. ونجد من ناحية عملية، إن كل فصل من فصول دراستهم الطويلة يُذكر القارئ بأنه سجين في هذا العالم، وإنه عليه تحرير نفسه عن طريق المعرفة. إن جميع العلوم التي تنأولوها، الفلك والأوعية الدموية وعلم الأجنة والفلسفة والإلهيات..وغيرها، قد تمت مناقشتها ليس لغرض دنيوي بحت أو مماحكة فكرية، ولا حتى من أجل تطبيقاتها العملية، بل من أجل حل العُقد الموجودة في نفس القارئ عن طريق جعله واعيًا لعظمة انسجام العالم وجماله من جهة، وضرورة أن يذهب الإنسان

إلى مابعد الوجود المادي من جهة أُخرى. لهذا فقد جمع إخوان الصفا في تربيتهم المثالية فضائل أُمم عديدة من أجل الوصول إلى تلك النهاية [١٩].

المحور الثاني- الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا:

بينما رأى بعض العلماء أن غاية إخوان الصفا تمثلت في قلب الحالة السياسية السائدة عن طريق إحلال نظام فلسفي قادر على أن يكون أساسًا للحياة، اعتقد معظم من درس عقائدهما أن هدفهم هو الجمع بين الدين والفلسفة تحقيقًا لأغراضهم السياسية؛ إذ عاش إخوان الصفا في المرحلة التاريخية التي ضعفت فيها الدولة العباسية بعد مقتل الخليفة المتوكل وسيطرة الأتراك على أرجاء الخلافة الإسلامية، فعم الاضطراب، وظهرت البدع والفرق والجماعات مما أدى إلى عدم الاستقرار السياسي [٢٠]. وفي الواقع كثيرًا ماتكلم الإخوان أنفسهم عن فضائل الفلسفة كطريقة في البحث عن الحقيقة، وعن الجمع بينهما وبين ناموس الأنبياء الإلهي؛ إذ قرنوا الفلسفة بالحكمة[٢١] مخالفين بذلك غالبية جمهور الكتاب المسلمين ممن استخدموا الفلسفة كمرادف يقترب في معناه من الحكمة الإنسانية المحضة والتي تجد مرجعها النهائي في التنزيل الذي نزل على الأنبياء القدماء.

والفلسفة بالنسبة لإخوان الصفا كما جاء نصًا في رسائلهم هي: " تشبه الإنسان على قدر الطاقة بالله "إنها" السبيل الذي يقرب النخبة أو الملائكة على الأرض، مرة أُخرى من الباري سبحانه وتعالى " [٢٢].

إن السمة البارزة بشكل خاص فيما يتعلق بمعالجة إخوان الصفا لعلاقة الفلسفة بالإسلام هي ربطهم للإيمان، أو الجانب الباطني للإسلام " بالخدمة الإلهية للفلاسفة " [٢٣]. ويشبه هذا التفريق التمييز الذي جعلته الصوفية بين كل من الإسلام والإيمان والإحسان كمراتب ثلاثة للدين: المرتبتان الأخيرتان ليستا إيمانًا بسيطًا فقط، بل حكمة ومعرفة أيضًا [٢٤]. ومع ذلك فهناك اختلاف بين الرأيين هو التالي: بينما تستمد الصوفية طقوسها المتعلقة بالإيمان والإحسان من شريعة النبي (ص)، تبدو الطقوس الموسومة من قبل إخوان الصفا

مرتبطة بدين ورثة سيدنا إدريس، أي الحرانيين، الورثة الرئيسين لما كان يسمى في الشرق الأوسط " بالفيثاغورثية الشرقية " وحماة الهرمسية ودعاتها في العالم الإسلامي. وكانت طقوس إخوان الصفا الفلسفية تقام على ثلاث أُمسيات في الشهر، كان طقس الليلة الأولى يتضمن خطبة شخصية، والليلة الثانية قراءة نص كوني تحت قبة السماء المليئة بالنجوم على أن يكون القارئ متجهًا نحو نجم القطب، وفي الليلة الثالثة ترنيمة فلسفية (تتضمن موضوعًا من موضوعات ما بعد الطبيعة أو ما بعد الكون)، وهي إما " صلاة إفلاطون" أو" ابتهال غدريس" أو " ترنيمة آرسطو السرية ". يضاف إلى ذلك وجود أعياد فلسفية ثلاثة كبرى في كل عام. وقد ربط إخوان الصفا بينها وبين الأعياد الإسلامية الثلاثة: الفطر في نهاية رمضان، والأضحى في العاشر من ذي الحجة، والغدير في الثامن عشر من الشهر ذاته، وهو اليوم الذي نصب فيه النبي (ص) عليًا بن أبي طالب خليفة له في غدير خم، ويعتبر أحد أيام احتفالات الشيعة الكبرى، حيث جعلوه رمزًا لاحتفال الخريف. أما فصل الشتاء فقد كان هناك يوم طويل من الصيام يقابل الوقت الذي كان فيه " النيام السبعة نائمين في الكهف " [٢٥].

لقد كان لإخوان الصفا اتجاهات الفلسفة الصوفية، وهذا ماتفصح عنه رسائلهم، فقد احتقروا الجسد وشهواته كما زهدوا في الحياة الدنيا، كذلك تنهى مراتب السلوك عندهم بالفناء في الله، والسعادة الأخروية عندهم أرفع واعز من سعادة الدنيا، وبالجملة فإنه لولا استخدامهم لمصطلحات الفلسفة دون تعبيرات التصوف، فإنهم فيما يعترضوا له من سلوك وأخلاق وربما أبحاثهم في الإلهيات، كذلك يقتربون من الصوفية في ظاهر أقوالهم [٢٦].

وأخيرًا لابد أن نوضح مصادر الرسائل التي تضمنت الجوانب الفلسفية التي عبر عنها إخوان الصفا وهي [٢٧]:

١- الرياضيات المكونة من الرباعيات (أو، المربعات).

٢- المنطق.

٣- العلوم الطبيعية، وهذه تقسم إلى أربعة أجزاء:

أ- علم المبادئ الجسمانية، ويهتم بالمبادئ التي تحكم الأجسام ويتكون من معرفة الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة.

ب- علم السماء، ويتكون من علوم النجوم وحركة الكواكب وأسباب صفة استقرار الأرض وغيرها.

جـ- علم الحوادث الجوية، ويتكون من معرفة تغيرات الطقس بتأثير النجوم والرياح والرعد والبرق وغيرها.

د- علم الكون والفساد، ويتكون من معرفة الأركان الأربعة وتغيرها، والمعادن والنبات والحيوان التي منها تأتي إلى الوجود.

يبدو إن الصفة التكرارية لبعض أفكار رسائل إخوان الصفا فيما يخص العلوم الفلسفية الحقيقية يتفق مع فلسفتهم في دراسة الطبيعة المقارنة مع اللاهوت، ومع العلوم الشرعية والدينية والأخلاقية والنفسانية والناموس الإلهي والسياسة الشرعية التي مثلت الجوانب الأساسية في فكر إخوان الصفا. بعبارة أُخرى إن الفلسفة هي المقدمة الأساسية التي تعبر عن أفكار هذه الجماعة بترابطها مع مجموعة التقسيمات أعلاه.

المحور الثالث – الأخلاق وسياسة النفس عند إخوان الصفا:

تقوم الأخلاق عند إخوان الصفا على ثلاث ركائز أساسية هي: الطبيعة والعقل والناموس [٢٨]. أما الطبيعة، فهي التي تحدد الأخلاق في الجبلة. وإما العقل، فهو الذي يستحسن أو يستقبح العمل الخلقي عند الاختيار. وإما الناموس فهو الذي يأمر بالعمل إذا كان خيرًا وينهي عنه إذا كان شرًا [٢٩]. وعلى هذا الأساس، فإن الأخلاق عندهم هي أخلاق هادفة تبغي المحافظة على الذات على أفضل صورة وتبغي أيضًا خدمة أغراض الدنيا والآخرة على أجمل وجه.

إن السمات الأخلاقية تبدو واضحة في رسائل إخوان الصفا؛ إذ هم لم يقصدوا أن يجعلوا الفضيلة عَلمًا على جماعتهم فحسب، بل إن الاسم يشير إلى فكرة سامية في الأخلاق بحثها آرسطو، ولكنها لم تلق إهتمامًا يذكر من فلاسفة الأخلاق من بعده ويعني هنا الصداقة، وللإخوان آراء مستضيفة في الصحبة أو الصداقة وفي بيان ضرورتها [٣٠]، بل إنهم قد وصفوا أنفسهم إنهم عصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة [٣١]، وغني عن البيان ضرورة الصحبة وأهمية الصداقة في دعوة سياسية تجتذب الأتباع، على أن ذلك لا ينقص من القيمة الخلقية لفكرة الصداقة لديهم، فليس كل ما اشترطوه من فضائل ذات مغزى سياسي، إنهم لم ينسوا أن يكون من بين شروط الانضمام إلى جماعتهم، الشفقة على ذي كل روح، كما استبعدوا من كان معجبًا صلفًا أو نكدًا لجوجًا أو فظًا غليظًا أو مماحكًا ماريًا أو حسودًا حقودًا أو منافقًا مرائيًا أو بخيلًا شحيحًا أو جبانًا مهينًا أو متكبرًا جبارًا أو حريصًا شريهًا، أو كان محبًا للمدح والثناء أكثر مما يستحق أو كان مزدريًا لنظرائه أو مستحقرًا لأقرانه ذامًا لهم أو متكلًا على حوله وقوته [٣٢]. وهذه كلها أبعاد أخلاقية واضحة تعبر عن السمات الأخلاقية وسياسة النفس عند الإخوان.

ويرتضي الصاحب (الأخ) في ظل دعوتهم إلى مراتب لاتخلو من سمات خلقية، فالمرتبة الأولى هي مرتبة الأخيار، حيث يتصف المبتدئون بصفاء النفوس، والمرتبة الثانية مرتبة الأخيار الفضلاء المتصفين بسخاء النفس وإعطاء الفيض والشفقة والرحمة والتحنن على الإخوان، ثم مرتبة الإخوان الفضلاء الكرام المدافعين عن الحقائق ضد المخالفين وبالرفق واللطف، وأخيرًا مرتبة الكمال، حيث تصفو النفس من ظلمات الهيولى لتجاور الرحمن ذا الجلال والإكرام [٣٣].

والذي يهمنا هنا، إن الأخلاق عند الإخوان تتطور ولها علاقة بالمجتمع، وبالتالي تستبطن هذه العلاقة أهدافًا سياسية غير معلنة لديهم ويمكن تفسير ذلك كالآتي:

إن الأخلاق عند الإخوان هي كالوجود من حيث الوحدة والاتساق، فكما إن الوجود يقوم على تفاصيل في المرتبة والدرجة، وكما إن التطور في عالم الكون والفساد يحدث من الأدنى فالأعلى، ويخضع لمقولة النشوء والارتقاء، وكما إن النفوس الوضيعة تخدم الشريعة كذلك الأخلاق، فإنها تقوم على نفس الأُسس وترتكز إلى عين المبادئ وتتحلى بذات الخصائص التطورية [٣٤]، والأخلاق باستنادها إلى هذه المبادئ وخضوعها لهذه المقاييس تحمل صفة التطور، فهي تبدأ بالمادة الطبيعة وتنتهي بالخضوع للناموس (الدين)، فالطبيعة هي التي تقدم للإنسان خامة الأخلاق المادية وهو بانتقائه للعمل الخلقي إذا جاء اختياره مطابقًا للفكر والرؤية، وكان حقًا مأمورًا به أو منتهيًا عنه يثاب ويكافأ ويعاقب ويجازى إذا كان عمله شرًا وقبيحًا [٣٥].

على ضوء هذه الأفكار حول الأخلاق، نلاحظ إنها بالإضافة إلى النواحي العقلية والروحية والتطورية التي تتصف بها، تتسم بطابع اجتماعي، فالأخلاق عندهم ليست شخصية ومجردة وحسب، وإنما هي ذات أثر اجتماعي يحدد بواسطة الوازع الديني المتمثل بالخضوع لأوامر الناموس[٣٦]. ويعين بالأهداف والمقاصد الراميتين من وراء تهذيب أخلاق الفرد وإصلاح الذات والمجتمع [٣٧].

ومن دعوتهم إلى الإصلاح تتضح المرامي والغايات السياسية التي تعبر عن أفكارهم؛ إذ هذه الدعوة الإصلاحية لإخوان الصفا هي ذات الدعوات الإصلاحية لجماعات كانت أهدافها سياسية تعبر عنها عن طريق العلم والأخلاق، وانقلبت هذه الجماعات ذات الدعوات الإصلاحية مذهبًا خاصًا حتى بعد اندحارها؛ إذ إن هذه الجماعات ما كانت توشك أن تحقق أهدافها بعد كفاح شديد، حتى كانت تواجه مقاومة الطبقات العليا ومعارضة الحكومة، فيضيقون عليها الخناق ويعدمونها أحيانًا، فيتوسل اتباع هذه الجماعات إلى عقائد الأقليات وتختفي تحت ستار مذاهبها وتأخذ منها وتتأثر عنها فتنقلب مذهبًا في عرض تلك المذاهب شيئًا فشيئًا، ويمكن أن نعد من هذه الجماعات التي انقلبت مذهبًا خاصًا بعد اندحارها، المانوية أصحاب ماني (

٢١٦-٢٧٢م) وكذلك المزدكية (٤٨٧-٥٢٩م) قبل الإسلام. وبعد الإسلام نعرف من هذه الجماعات ما لا يحصى عددًا، كالمسلمية، الإسماعيلية، البابكية، الخرمية وغيرهم؛ وسبب ذلك إن الإسلام جاء بحرية العلم ورغب إلى التفكر وسأوى بين الأُمم ورفع الفوارق إلا بالتقوى.

وإخوان الصفا، هي واحدة من هذه الجماعات التي عبرت عن مذهب كان له مغزى سياسي وهو يقترب بعض الشيء من مذهب الإسماعيلية، لذلك يمكن اعتبار الأخلاق ونشر العلم بأسهل الطرق، عند هذه الجماعات ومنهم الإخوان تستبطن هدفًا سياسيًا بأن تكون مذهبًا ومرجعًا في كل النواحي وخصوصًا الاجتماعية والدينية والسياسية(٣٨).

هذا يدفعنا إلى نظرة الإخوان للسياسة، فهم يميزون في السياسة بين عدة أنواع: السياسة النبوية، السياسة الملوكية، والسياسة العامية، والسياسة الخاصية، والسياسة الذاتية. أما السياسة النبوية: فهي معرفة كيفية وضع النواميس المرضية والسنن الزكية بالأقاويل الفصيحة، ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة، والآراء السخيفة، والعادات الرديئة، ومعرفة كيفية نقلها من تلك الأديان والعادات.

وأما السياسة الملوكية، فهي معرفة حفظ الشريعة على الأُمة، وإحياء السنة في الملة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بإقامة الحدود، وإنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة، ورد المظالم، وقمع الأعداء، وكف الأشرار ونصرة الأخيار. وهذه السياسة يختص بها خلفاء الأنبياء والأئمة وهكذا فالسلطان للحكماء والأنبياء.

وإما السياسة العامية التي هي الرئاسة على الجماعات كرئاسة الأُمراء على البلدان والمدن ورئاسة الدهاقين على أهل القرى، ورئاسة قادة الجيوش على العساكر.

وإما السياسة الخاصية فهي معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته، وإما السياسة الذاتية، فهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه، وتفقد أفعاله وأقاويله في

حال شهواته وغضبه ورضاه والنظر في جميع أُموره [٣٩]. ونظرتهم في السياسة وتقسيماتها أعلاه هي نظرة مشابهه لنظرة الفارابي.

إن هذا الربط بين الأخلاق والسياسة عند الإخوان بعد توضيح هويتهم وأهميتهم، والفلسفة لديهم، يدفعنا إلى محاولة تحديد نظرتهم إلى النبوة ضمن ثنايا المحور الرابع، بوصف المحور الأساس المرتبط بفكرهم السياسي.

المحور الرابع – النبوة ووحدة الأديان عند إخوان الصفا:

أفرد إخوان الصفا الرسالة السابعة والأربعين من رسائلهم للبحث في ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة، وكمية خصال الأنبياء الذين اعتبروهم أطباء النفوس ومنجموها. وهم يرون أن النبوة هي أعلى درجة وأرفع رتبة، ينتهي إليها حال البشر مما يلي رتبة الملائكة، وإن تمامها في ست وأربعين خصلة من فضائل البشرية، شرحوها وفصلوها في رسائلهم، وأشاروا إلى إنه إذا اجتمعت هذه الخصال في واحد من البشر، في دور من أدوار القرانات، في وقت من الزمان، فان ذلك الشخص هو المبعوث، وصاحب الزمان، والإمام للناس مادام حيًا [٤٠].

ويضيفون " فإذا بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأُمة، ودون التنزيل، ولوح التأويل، وأحكُم الشريعة، وأوضح المنهاج، وأقام السنة، وألَف شمل الأُمة، ثم توفي ومضى إلى سبيله، بقيت تلك الخصال في أُمته وراثة منه، وإن اجتمعت تلك الخصال في واحد من أُمته، أو جلها، فهو الذي يصلح أن يكون خليفته في أُمته بعد وفاته، فإن لم يتفق أن تجتمع تلك الخصال في واحد، لكن تكون متفرقة في جماعتهم، اجتمعت تلك الجماعة على رأي واحد، وائتلفت قلوبهم على محبة بعضهم بعضًا، وتعاضدت على نصرة الدين، وحفظ الشريعة، وإقامة السنة، وحمل الأُمة على منهاج الدين، دامت لهم الدولة في دنياهم، ووجبت العقبى لهم في أُخراهم. وإن تفرقت تلك الأُمة بعد وفاة نبيها، واختلفت في منهاج الدين، تشتت شمل أُلفتهم، وفسد عليهم أمر آخرتهم، وزالت عنهم دولتهم " [٤١].

الشريعة الإلهية بإعتقاد إخوان الصفا، جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية في جسد بشري بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية، بإذن الله تعالى، في دور من الأدوار والقرانات، وفي وقت من الأوقات، لتجذب بها النفوس الجزئية، وتخلصها من أجساد متفرقة، ليفصل بينها يوم القيامة. وحتى تكون فضيلة واضع الشريعة تامة كاملة، أوجب إخوان الصفا أن تكون فيه اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها وهي[٤٢]:

١- أن يكون تام الأعضاء، قوية قوائمه على الأعمال التي من شأنها أن تكون بها ومنها، ومتى هم أن يقضي عملًا أتى عليه بسهولة.

٢- أن يكون جيد الفهم، سريع التصور لكل مايقال له ويلقاه؛ لفهمه على مايقصد القائل به على حسب الأمر في نفسه.

٣- أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يسمعه ولما يذكره، وبالجملة لايكاد ينسى شيئًا منها.

٤- أن يكون فطنًا ذكيًا ذا رأي يكفيه لتبين أدنى دليل، حتى إذا رأى على شيء أدنى الدليل، فطن له على الجهة التي يدل عليها الدليل.

٥- أن يكون حسن العبارة، يواتيه لسانه على مافي قلبه وضميره، بأوجز الألفاظ.

٦- أن يكون محبًا للعلم والاستفادة منقادًا له سهل القبول، لايؤلمهُ تعب العلم، ولايؤذيه الكد الذي يلحقه.

٧- أن يكون محبًّا للصدق وحسن المعاملة مقربًا لأهله.

٨- أن يكون غير شره في الأكل والشرب والنكاح، متجنبًا العيب، مبغضًا للذات الكائنة عن هذه.

٩- أن يكون كبير النفس، عالي الهمة، محبًا للكرامة، تكبر نفسه الطبع عن كل مايشين من الأُمور ويشنع، وتسمو همة نفسه إلى أرفع الأمور رتبة وأعلاها درجة.

١٠- أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده، زاهدًا فيها.

١١- أن يكون محبًا للعدل وأهله، مبغضًا للجور والظلم وأهله، يعطي النصفة لأهلها، ويرثي لمن حل به الجور، ويكون مواتيًا لكل مايرى حسنًا جميلًا عدلًا، غير صعب القياد ولا جموح، وإن دعي إلى الجور والقبيح لايجيب.

١٢- أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى إنه ينبغي أن يفعل، جسورًا مقدامًا، غير خائف ولا ضعيف النفس.

ويذهب إخوان الصفا إلى أن أول قاعدة يضعها النبي، ثم يبني عليها سائر مايعمل في تتميم الشريعة من القول والعمل، وتكميلها من الأقاويل والأوامر والنواهي ومعاني تأويلها ومفروضات شرائعه، وسنن أحكامه، وتدبير أُمته وسياسة أهل مملكته في أمر الدين والدنيا، هو أن يرى ويعتقد في نفسه، علمًا يقينًا، إن للعالم بارئًا قديمًا حيًا عالمًا حكيمًا قادرًا قاهرًا مريدًا، هو علة الموجودات، ومصرفها بحسب مايليق بواحد واحد منها. والثاني في اعتقادهم: أن يرى ويتصور موجودات عقلية مجردة من الهيولي، كل واحد منها قائم بنفسه، متوجه نحو مانصب له من أمره، وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده، بهم تقع المراسلة والوحي والأنبياء، ومن جهتهم يحصل التأييد. والثالث: أن يرى ويعتقد موجودات نفسانية مجردة من الأبدان تارة، وإنها نازلة من جثث الحيوانات بحسب مايليق بواحد واحد منها من إدراك مآربها وتمكنها به. والرابع: أن يرى أن بمفارقتها الجثث لاتبطل ذاتها وخروجها من الأجساد والحس لايخرجها من قدرة الباري سبحانه. والخامس: أن يرى إن كل واحدة من الموجودات منفردة بذاتها لايصلحها ولايفسدها إلا مايتعلق بها من سوء أعمالها أو فساد آرائها أو رداءة أخلاقها أو تراكم جهالاتها. السادس: أن يرى إن الباري تعالى إذا أمر الناس أمرًا مكنهم منه وأزاح عللهم فيه، فمنهم طائع لأمره، ومنهم راكب نهيه. والسابع أن يجعل لكل صنف من أصناف الطاعات والمعاصي جزاءً من الثواب والعقاب، ويعلم المأمورين والمنهين عنه إذا ماآتوه على بصيرة أوجب الأجر وقطع العذر. والثامن: أن يرى لهم معادًا فيه مُجازون بما أسلفوا من خير وشر وعرف ونكر، وإنه قد جعل إلى كل واحد تمهيد مثواه

وإصلاح مأواه، فإن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعليها. والتاسع: أن يرى إن الدعاء إلى الله تعالى أولى الأعمال بالثواب، وأرفعها درجة عند المآب. والعاشر: أن يرى إن الدعاة إلى الله تعالى هم أعلى الناس درجة، وأرفعهم منزلة، وأشدهم في الدعاء إلى الله تعالى حرصًا، وأكثرهم فيه دربًا وأوسعهم علمًا وأكثرهم أُمة وأعظمهم على الناس نعمة وأنطقهم بالصدق وألزمهم لمنهاج الحق [٤٣].

وإذا تحققت هذه الآراء في نفس واضع الشريعة، وتصورها في فكره كأنه يشاهد يقينًا لاشك فيه، دعا عند ذلك إليها أهل دعوته الذين أرسل إليهم، ويجتهد في أنبائهم ماقد اعتقده بالتصريح عنها للخواص من أهل دعوته في السر والإعلان، غير مرموز ولامكتوم، ثم يشير إليها ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة والمعاني المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور وتقبلها نفوسهم. ثم يذكرون خصلة أُخرى من خصال واضع الشريعة، وهي مراعاته لأهل دعوته، وضرورة التعرف على خبر كل واحد منهم، من الصغير إلى الكبير، والذكر والأُنثى، والحر والعبد، والشريف والدنيء، والعالم والجاهل، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والقريب والبعيد، وذلك ليعرف اسم ونسب كل واحد منهم وصناعته وعمله وتصرفه في حالاته، وماهو بسبيله من أمر معاشه، وماهو الغالب عليه من الطبع الجيد والرديء، والخلق الحسن أو السيء، والعادات العادلة أو الجائرة حتى يثق بهم علمًا، ويتبين منازلهم، ويستعين بكل واحد منهم في العمل المشاكل له، ويستخدمه في الأمر اللائق به [٤٤].

إن غرض النبي عند إخوان الصفا، ليس إصلاح أمر نفسه، ولا إصلاح أنصاره وأتباعه الموجودين في زمانه، بل هدفه إصلاحهم وإصلاح من يجيء بعدهم من التابعين، ومن يجيء بعد أولئك إلى يوم القيامة.

وباعتقاد إخوان الصفا إن مثل واضع الشريعة مع إخوانه وأنصاره وأتباعه الذين يأتون بعدهم إلى يوم القيامة في حكم الشريعة، كمثل شجرة هو، وأصحابه وأنصاره أغصانها وقضبانها، ومن يأتي بعدهم من التابعين لهم كالفروع.

وقد يتعرض الأنبياء والصالحين وأتباعهم إلى شدائد وجهد والآم في إظهار الدين وإفاضة سنن الشريعة في أول الأمر. ولكن لما كان الباري تعالى غرضه في إظهار الدين وسنة الشريعة هو النفع العام وصلاح الكل من الذين يجيئون بعدهم إلى يوم القيامة، ولا يحصى عددهم ونفعهم وصلاحهم، سهل في جنب ذلك وصغر مانال النبي من أذية من المشركين [٤٥].

أما وظائف النبوة فهي: إظهار الدعوة في الأُمة، ثم تدوين الكتاب المنزل بالألفاظ الوجيزة، وتبيين قراءاته في الفصاحة، ثم إيضاح تفسير معانيه، وبلوغ تأويله، ووضع السنن المركبة، ومداواة النفوس المريضة من المذاهب الفاسدة، والآراء السخيفة والعادات الرديئة، والأعمال السيئة، والأفعال القبيحة. ومن واجب النبي بذل كل إمكاناته لنقل هذه النفوس وتشذيبها من تلك العادات وتلك الآراء، ومحوها عن ضمائرنا بالتعرض لعيوبها، وذلك بالرأي الرصين، والترغيب في جزيل الثواب ليوم المآب. مضافًا إلى وظائف أُخرى تتضمن إجراء السُنة في الشريعة، وإيضاح المنهاج في الملة، وتبيين الحلال والحرام، وتفصيل الحدود والأحكام في أمور الدنيا جميعًا، ثم التزهيد في الدنيا وذم الراغبين فيها، وتفصيل أحكام الخاص والعام ومابينهما من سائر طبقات الناس، وماشاكل هذه الخصال الموجودة في الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل والقرآن وصحف الأنبياء (عليهم السلام) [٤٦].

من خلال عرض إخوان الصفا لموضوع النبوة نصل إلى إيمانهم بوحدة الأديان، فذهبوا إلى أن جميع الأديان في جوهرها واحدة؛ لأن لها غاية واحدة، هي التعلق بالمثل العليا الفاضلة والتشبه بالإله على قدر الطاقة الإنسانية؛ إذ قال: وأعلم إن دولة أهل

الخير يبدأ أولها من قوم علماء، حكماء، أخيار فضلاء، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ودين واحد، ويعقدون بينهم عهدًا وميثاقًا ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضًا، ويكونون كرجل واحد في جميع أُمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة (٤٧).

هذه مجمل آراء إخوان الصفا في الأنبياء والرسل، وهي في مفهومها العرفاني لا تختلف عما يذهب إليه بقية المسلمين، بصورة عامة، والإسماعلية بصورة خاصة.

المحور الخامس- الإمامة عند إخوان الصفا:

إن الرياسة في مفهوم إخوان الصفا على نوعين: جسماني وروحاني. فالرياسة الجسمانية، مثل رياسة الملوك والجبابرة الذين ليس لهم سلطان إلا على الأجسام والإجساد بالقهر والغلبة والجور والظلم، ويستعبدون الناس، ويستخدمونهم قهرًا في إصلاح أُمور الدنيا وشهواتها، والغرور بلذاتها وأمانيها. وإما الرياسة الروحانية، فهي عندهم مثل رياسة أصحاب الشرائع الذين يملكون النفوس والأرواح بالعدل والإحسان، ويستخدمونها في الملل والشرائع؛ لحفظ الشرائع، وإقامة السنن والتعبد بالإخلاص والتأله برقة القلوب، واليقين بنيل الثواب، والفوز، والنجاة، والسعادة في الميعاد. النوع الأول يمثل الملك المسلط على الأُمة، والنوع الآخر يمثل النبي المبعوث إلى الأُمة، والإمام الذي يستكمل دور النبي بعد وفاته ويلازمه في حياته (٤٨).

إذن إخوان الصفا وخلان الوفا، يعالجون الرياسة الروحانية بدلالة الإمامة كامتداد للنبوة كغيرهم من الشيعة، وهم يعدون الإمامة المحور الأساس الذي تدور عليه كافة العقائد. ولكنهم لايصرحون بهذا المعتقد علانية، بل يرمزون ويشيرون إليه من طرف خفي.

وبالرغم من أن جماعة إخوان الصفا، يرون في رسائلهم أن الإمامة هي من إحدى أُمهات مسائل الخلاف بين العلماء، قد تاه فيه الخائضون إلى حجج شتى، وأكثروا فيها القيل والقال، وبدت بين الخائضين فيها العداوة والبغضاء، وجرت بين طالبيها

الحروب والقتال، وأُبيحت بسببها الأموال والدماء لاتزال باقية ومستمرة، لم تنتهِ بل ازداد الخائضون فيها العداوة والمختلفون فيها خلافًا على خلاف وتتشعب فيها آراء ومذاهب.

نلاحظ من الناحية الرمزية الباطنية إنهم يعدون الإمام صورة الصور، وإنه خليفة الله في أرضه، متحكمًا على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها، حكم الأرباب على خولها؛ إذ سجدوا لها بجملتها، والإمامة صورة واحدة، وإن كانت أشخاص كثيرة. والعقل باعتقادهم هو خليفة الله الباطن، فمن سلط على خلافة الله عدوه، دمره الله وذهب عقله بدخول عدوه عليه، وإذا ذهب العقل، ذهب الدين والعلم، والمروءة، والحياء، والرقابة على العباد في عالم الكون والفساد. والعقل جعله الله رئيسًا على الفضلاء من خلقه، الذين هم تحت الأمر والنهي؛ ليجمع شملهم، ويحفظ نظام أمرهم، ويراعي تصرف أحوالهم، لذلك يقولون: " فقد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحكم بيننا، العقل.."[٤٩] .

من هذه الأفكار يتبين لنا أن إخوان الصفا لهم آراء ظاهرة في الإمامة تنسجم مع مايذهب إليه بقية الشيعة، ولكن من الناحية الباطنية ينظرون إلى الإمام نظرة خاصة، هي نفس نظرة الإسماعلية بصورة خاصة إلى الإمام، والباطنية بصورة عامة...، وأفردوا في الرسالة الثانية والأربعون من رسائلهم، فعلا الاختلاف في الإمامة، فقالوا [٥٠] : " إعلم إن الأُمة كلها تقول إنه لابد من إمام يكون خليفة لنبيها في أُمته بعد وفاته: وذلك لأسباب شتى وخصال عدة: إحداها أن يحفظ الإمام الشريعة على الأُمة، ويحيي السُنة في الملة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتكون الأُمة تصدر عن رأيه. وقوم آخرون يكونون خلفاءه في سائر البلدان للمسلمين بالنيابة عنه في جباية الخراج، وأخذ الأعشار والجزية، وتفريقها على الجند والحاشية؛ ليحفظ بهم ثغور المسلمين، ويحفظ الطرقات من اللصوص والقطاع، فيمنع الظالم، ويردع القوي عن الضعيف المظلوم، وينصف ويعول بين الناس فيما يتعاملون به، وما شاكل هذه الخصال التي لابد للمسلمين من قيم بها في ظاهر أمور دنياهم ".

ومن هذا التأسيس، لابد لفقهاء المسلمين وعلمائهم أن يرجعوا إليه (الإمام) عند مشكلاتهم في أمر الدين، وعند مسائل الخلاف، فيحكم هو بينهم فيما يختلفون من الحكومة والفقه والأحكام والحدود والصلوات والجمعات والأعياد، والحج، والغزو، وتولية القضاة والعدول، وفتوى الفقهاء، ويصدرون كلهم عن رأيه وتدبيره، وأمره ونهيه. فهذا هو الأصل المتفق بينهم في حاجتهم إلى الإمام.

والناس كما يرى إخوان الصفا، مختلفون على رأيين ومذهبين في من ينبغي أن يكون الإمام، فمنهم من يرى ويعتقد إنه لا ينبغي إلا أن يكون أفضلهم كلهم بعد نبيها، وأقربهم إليه نسبة، ويكون قد نص عليه، ومنهم من يرى بخلاف ذلك [٥١].

ويلاحظ إن إخوان الصفا بعد أن يعددوا خصال عديدة، أوجبوا توفرها بأصحاب الرسالات من الأنبياء، كإجراء السُنة في الشريعة، وإيضاح المنهاج في الملة، وتبيين الحلال والحرام، وتفصيل الحدود والأحكام في أُمور الدنيا جميعًا، وماشاكل هذه المناقب والصفات المعروفة بين أهل العلم، الموجود وصفها في الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل والقرآن وصحف الأنبياء. يلتفتون إلى خصال الملك، فيذهبون إلى أن أولها أخذ البيعة على الأتباع المستجيبين، وترتيب الخاص والعام على مراتبهم، وجباية الخراج والعشر والجزية من الملة، وقبول الصلح والمهادنة من الملوك والرؤوساء، من الأمور المستحبة " وأعلم إنه ربما تجتمع هذه الخصال في شخص واحد من البشر، في وقت من الزمان، فيكون هو النبي المبعوث وهو الملك، وربما تكون في شخصين اثنين: أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأُمة، والآخر المسلط عليهم، وأعلم إنه لأقوام لأحدهم إلا بالآخر، كما قال ملك الفرس آردشيز في وصيته: إن الملك والدين توءمان لأقوام لأحدهما إلا بالآخر، وذلك إن الدين أُس الملك والملك حارسه، مما لا أُس له مهدوم، وما لاحافظ له ضائع، ولابد للملك من أُس، ولابد للدين من حارس " [٥٢].

هذه مجمل آراء إخوان الصفا في الإمامة من الناحية الظاهرية أو بالأحرى، كما يقول به عامة المسلمين، ولكن إلى جانب هذه الآراء لهم آراء باطنية تتعلق بالرموز والإشارات

التي تعطي الإمامة صفة قدسية روحانية عالية، فهم يعتبرون الإمام بمنزلة العقل الفعال، أو الموجود الأول، وذلك في حال عدم وجود الناطق (النبي)؛ لأنه يحل محله في رتبته، وفي حال وجود النبي يحمل الإمام بإعتباره صاحب التأويل، مرتبة النفس الكلية، أو المنبعث الأول. وهو في عالم الدين، أو عالم الصنعة النبوية، الرئيس الروحي الأعلى، الذي يعد وجوده ضروريًا، في كل عصر وزمان؛ ليكون حجة الله في أرضه. والضامن لعباده التسرمد والخلود؛ لما يبين لهم من الأصول والأحكام، والحلال والحرام. وحسب قولهم: " وأعلم بان كل الناس أشخاص لهذا الإنسان المطلق، وهو الذي أشرنا إليه إنه خليفة الله في أرضه منذ يوم خلق آدم أبي البشر إلى يوم القيامة الكبرى، وهي النفس الكلية الإنسانية الموجودة في كل أشخاص الناس، كما ذكر جل ثناؤه بقوله: " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة "(***). كما بينا في رسالة البعث. وأعلم يا أخي، أيدك الله بروح منه، بأن هذا الإنسان المطلق، الذي قلنا إنه خليفة الله في أرضه، وهو مطبوع على قبول جميع الأخلاق البشرية، وجميع العلوم الإنسانية، والصنائع الحكيمة، هو موجود في كل وقت وزمان " (٥٣).

هذه الرموز والإشارات الباطنية إلى إمام العصر، والرئيس المطلق للجماعة، تؤكد على إن إخوان الصفا من واضعي اللبنة الأولى في صرح الدعوة الإسماعيلية الفكري في موضوع الإمامة، والتي كان من ثمراتها قيام الدولة الفاطمية في المغرب، ثم في مصر، واليمن، على الأُسس والمرتكزات التي نوه عنها إخوان الصفا في رسائلهم.

ومن خلال ذلك من الممكن، تثبيت عدة نتائج يمكن أن تكون بابًا لصياغات أولية لهياكل بحثية، تهتم في مثل هكذا مواضيع لم تحسم النتائج بصددها بشكل نهائي حول الفكر السياسي لإخوان الصفا وخلان الوفا.

الخاتمة والنتائج:

من الممكن تسجيل بعض الخلاصات والاستنتاجات من الجوانب الأساسية للفكر السياسي لإخوان الصفا وخلان الوفا:

١- إن جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا، ليست سوى مجموعة من المفكرين، وصفوة مختارة من الفلاسفة وجهابذة العلماء، حشدوا كل إمكانياتهم الفكرية والفلسفية، للقضاء على دولة بني العباس؛ ليشيدوا على أنقاضها دولة جديدة – دولة أهل الخير– ذات نظام اجتماعي روحاني سليم، يهدف إلى إيجاد مذهب اجتماعي، وأُخوية فلسفية دينية إسلامية، وتأليف كتلة إسلامية قوية، موحدة الأهداف والكلمة.

٢- إن إخوان الصفا جماعة من الإسماعيلية، أو هم النظار المتفلسفون لحركة الإسماعيلية السياسية، وقصدوا من رسائلهم التي كتبت بلغة عامية ومبسطة إلى إحداث ثورة عقلية في الفكر الإسلامي ذات مرامي سياسية، مما يجعلنا تصنيفهم ضمن مدرسة عقلانية أصبحت بمرور الزمن، الأساس الذي ارتكزت عليه المعتقدات الباطنية الفلسفية التوحيدية في الإسلام، والتي تلألأت وأينعت ثمارها، مبدعة وخالقة لأكبر نهضة عرفانية عرفها التاريخ الإسلامي، رسمت المسار لتكوين الجماعات السرية في الإسلام.

٣- اعتقد إخوان الصفا، إن انتظام الفلسفة اليونانية والشريعة العربية يُمكن الوصول إلى الكمال، كما اعتقدوا إن بإمكانهم أن يدسوا الفلسفة في الشريعة وإن يربطوا الشريعة في الفلسفة إلا إنهم لم ينجحوا بذلك؛ لأن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة النبي(ص) عن طريق الوحي ما لا سبيل إلى البحث عنه والخوض فيه .

٤- إن إخوان الصفا من ناحية السلوك والأخلاق كدعوة سرية وكتنظيم إسماعيلي؛ جماعة مغلقة لابد أن تتصف بأخلاق الجماعات المغلقة، حيث الإلزام من

معتقداتهم يفرض عليهم سدًا يحول بينهم وبين الجماعات الأخرى، ومن ثم لايمكن أن يرقى الفرد في ظل تنظيم سري له هدف سياسي إلى مستوى حب الإنسانية .

٥- إن الأخلاق عند إخوان الصفا، هي أخلاق هادفة تحوي مضامين شخصية واجتماعية وما ورائية، فالغاية من الأخلاق عند الإخوان كما اتضح هي تهذيب النفس الإنسانية وبرأيهم إن هذا التهذيب ليس مسألة شخصية، وإنما هو مسألة تخضع لمعايير اجتماعية وما ورائية غايتها إصلاح الذات للعيش في مجتمع فاضل والعبور إلى حياة أبدية خالدة وهذا كله يصب لهدف سياسي معين وهو تكوين مذهب فقهي سياسي .

٦- النتيجة المهمة التي أوردها إخوان الصفا، هي دعوتهم العالمية عن طريق التكامل الإنساني والخلقي والديني، وذلك إن إخوان الصفا قد عرفوا الإنسان المثالي الكامل خلقيًا على إنه شرقي فارسي النشأة، ذو تربية عراقية أي بابلية، تلميذ المسيح في سلوكه، عربيًّا في إيمانه، عبريًّا في دهائه تقيًا كراهب سرياني، يونانيًّا في العلوم الفردية، هنديًّا في تفسيره للألغاز، وأخيرًا وبشكل خاص صوفيًّا في مجمل حياته الروحية [٥٤] .

٧- إن نظرة فاحصة لرسائل إخوان الصفا ولآرائهم وسياستهم المحشوة بالألغاز والإشارات، وسلوكهم طريق التعليم لا طريق البحث العميق، سنجد أن هدفهم كان بث روح الثورة على السلطان القائم، ومناداتهم بالإسماعلية والباطنية. فكان كلامهم مزيجًا من ثقافات وتيارات دينية مختلفة، وكانت فلسفتهم مجموعة مذاهب على أساس فيثاغوري إفلاطوني صبغوها بالصبغة الشيعية الباطنية، وفتحوا آفاقًا واسعة لمن أتى بعدهم من فلاسفة العرب في التحرر الفكري والسياسة الدينية [٥٥].

٨-مجمل آراء إخوان الصفا في الأنبياء والرسل ذات مفهوم عرفاني لايختلف عما يذهب إليه بقية المسلمين بصورة عامة، والإسماعلية بصورة خاصة. النبي عندهم بمنزلة الرأس من الجسد بالنسبة للمؤمنين يعمل على تركيز دعائم الشريعة وإيجاد السُنة الحسنة وإصلاح الأُمة وتحقيق النفع العام دون أن يفكر بالمشقة.

٩-وحدة الأديان التي طرحها إخوان الصفا، تعطينا الدليل على أن الفئوية لابد أن تنصهر بالفكرة العامة، فلا فئوية في حالة هذه الوحدة والكل يصبح فئة واحدة، وباعتماد العقل نصل إلى هذه الوحدة وباعتماد الفكر المنفتح ونسخ التعصب نصل إلى هذه الوحدة الدينية والمذهبية.

١٠- الإمامة في نظر الإسماعيلية، مرتبة أمر الله أن تكون في الذرية الطاهرة من أهل بيت النبوة، وتضمن دور الستر في نظام الإمامة عند الإسماعيلية أن يتخفى الإمام وأن يستر دوره السياسي، ويبقى دوره الديني من خلال تنظيم الدعوة وبث الدعاة في البلدان، وتوجيه هؤلاء الدعاة بشكلٍ مباشر أو عن طريق الحاجب أو داعي الدعاة حسب النظام والترتيب التنظيمي للإسماعيلية. فلم يكن زمن الستر والذي كان الإمام يمثل المرتبة الدينية قائدًا سياسيًا، وإنما كانت القيادة السياسية في يد أعداء الإمام واستتر الإمام تقيّة ليحافظ على وضعه كإمام وعلى أتباعه المنتشرين في كل أصقاع الأرض.

ومن هذه النظرة الداعية إلى الامتزاج والتكامل الإنساني والروحي والديني والجغرافي والإجتماعي يمكن تفسير مدى ما حملته وهدفت إليه جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا من أغراض سياسية عن طريق الدعوة إلى مرجعية سياسية عامة عن طريق الفلسفة والأخلاق والعلم والعرفان .

الهوامش

١- إبن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، (طهران، د.ن.، ١٣٢٦هـ) ص ٥٨-٦٣.

٢- شمس الدين الشهرزوري، تاريخ الحكماء نزهة الأرواح وروضة الأفراح، (طهران ، د.ن. ، ١٩٦٣)، ص ٣٥.

3- Encyclopedistes Arabs duive\ xeiecle(Beirut, 1948) , p. 48.

4- A. Tamir, Larealitedes IKhwan alsafa wa KHullan al wafa,(Beirut, 1957), p.17.

٥-عارف تامر، رسالة جامعة الجامعة، (بيروت، د.ن. ١٩٥٩)، ص ٥٨ وما بعدها.

٦-زكي باشا، مقدمة زكي باشا، (القاهرة، د.ن. ١٩٢٨)، من ص ١- ٥٨.

٧-سيد حسين نصر، رسائل إخوان الصفا، ترجمة: سيف الدين القصير، مجلة المعرفة، بيروت، العدد ٥، ١٩٧٨، ص ٥٢.

٨-أحمد محمود صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، (القاهرة، دار المعارف ، د.ت) ، ص٣٠٤.

٩-رسائل إخوان الصفا ، ج٤ ، ص١٥٨.

١٠-ابن القفطي ، مرجع سابق ، ص٦٣.

١١- دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة : د.إبو ريدة ، (القاهرة ، د.ت) ، ص١٦١.

(*) - الإمامة ضرورة دائمة بالنص وإمتداد للنبوة في نظر الإخوان، سنتناولها في المحور الرابع من البحث.

١٢- سيد حسين نصر ، مرجع سابق ، ص٥٣.

١٣- رسائل إخوان الصفا ، (القاهرة ، د.ن ، ١٩٢٨) ، ج٣، ص٩٠.

١٤- محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق وتخريج: حسن الأمين ،(بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٣٧١هـ) ، ص٢٢٦-٢٢٧

١٥- آقا بزرك الطهراني ، الذريعة ، (بيروت ، دار الأضواء ، ١٣٨٩هـ) ، ج٨ ، ص٩ .

١٦ - إلياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية ، (قم ، مكب آية الله المرعشي النجفي ، ١٤١٠هـ) ، ج١،ص٤١٠ .

١٧ - آقا بزرك الطهراني، مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٨٤-٣٨٥.

(**)- للإطلاع اكثر حول آرائهم تلك ومنها نظرية الفيض ينظر: فؤاد معصوم إخوان الصفا: (فلسفتهم وغايتهم)، ط١ (سوريا، منشورات المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨) ص ١٥ ومابعدها.

١٨- صلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، (بيروت ، دار إحياء التراث ، ٢٠٠٠)، ج١٥، ص٣١.

١٩ – سيد حسين نصر ، مرجع سابق ، ص٥٤

٢٠- طه حسين، مقدمة رسائل إخوان الصفا، (القاهرة ، د.ن ، د.ت)، ص٨.

٢١ – ينظر : رسائل إخوان الصفا ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٣٢٤ .

٢٢ – المرجع نفسه ، ج١،ص٢٢١

٢٣- المرجع نفسه ، ج٤ ، ص٣٣١

٢٤- سيد حسين نصر ، مرجع سابق ، ص٥٨-٥٩

٢٥ – المرجع نفسه ، ص٥٩

٢٦ – أحمد محمود صبحي ، مرجع سابق ، ص٣٠٧

٢٧ –رسائل إخوان الصفا، ج٣، ص٣٨٣

٢٨- المرجع نفسه ، ج١ ، ص٣٠٥-٣٠٦-٣١٨

٢٩ – المرجع نفسه ، ج١ ، ص٣٥٠

٣٠ – ينظر: المرجع نفسه ، ج٤ ، ص٢٠٢ – ٢٠٣

٣١ – محسن الامين ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٢٢٦

٣٢ – أحمد محمود صبحي ، مرجع سابق ، ص٣٠٢

٣٣ – رسائل إخوان الصفا ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص١٠٢

٣٤ – المرجع نفسه ، ج١ ، ص٣١٨

٣٥- زين عطوي ، الأخلاق عند إخوان الصفا ، مجلة الباحث، باريس، العدد ٥٢ ، ١٩٨٨، ص٩٢ .

٣٦ – رسائل إخوان الصفا ، ج٣ ، ص٥٢٧ .

٣٧ – المرجع نفسه ، ج١ ، ص٣٤٤ – ٣٨٦ – ٣٨٧

٣٨ – آقا بزرك الطهراني ، مرجع سابق ، ج٨ ، ص٩.

٣٩- حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، (بيروت، دار المعارف، ١٩٥٧) ،ج١، ص٢٧٩-٢٨٠.

middle-east2017@hotmail.com ISSN 2536-9636 M.E.R.C

٤٠- مصطفى غالب، إخوان الصفا وخلان الوفاء،(بيروت، دار ومكتبة الهلال للنشر، ١٩٨٩)، ص١١٨-١١٩.

٤١- رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ١٢٥.

٤٢- المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٣٠.

٤٣- المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٣٢.

٤٤- المرجع نفسه، ج٤، ص ١٣٤.

٤٥- المرجع نفسه، ج ٣، ص ٣٦٦.

٤٦- مصطفى غالب، إخوان الصفا وخلان الوفاء، مرجع سابق، ص ١٢٩.

٤٧- رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٢.

٤٨- مصطفى غالب، إخوان الصفا وخلان الوفاء، مرجع سابق، ص ١٢٠.

٤٩- رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٢٧.

٥٠- المرجع نفسه، ج٣، ص ٢٩٣.

٥١- مصطفى غالب، مرجع سابق، ص ١٦٩-١٧٠.

٥٢- رسائل إخوان الصفا، ج ٣، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(***) سورة لقمان، اية : ٢٨.

٥٣- رسائل إخوان الصفا، ج٣، ص ٢٨٨.

٥٤ – سيد حسين نصر ، مرجع سابق ، ص٥٤-٥٥.

٥٥- حنا الفاخوري وخليل الجر، مرجع سابق، ص ٢٨١.

middle-east2017@hotmail.com
M.E.R.C
ISSN 2536-9504

أولًا- المصادر والمراجع العربية:

١-ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف، أخبار العلماء باخبار الحكماء، (طهران، د.ن، ١٣٢٦هـ).

٢-أحمد محمود صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، (القاهرة ، دار المعارف ، د.ت).

٣-آقا بزرك الطهراني ، الذريعة ، (بيروت ، دار الأضواء ، ١٣٨٩هـ).

٤-إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية، (قم ، مكب آية الله المرعشي النجفي ، ١٤١٠هـ).

٥-حنا الفاخوري وخليل الجر، تأريخ الفلسفة العربية، (بيروت، دار المعارف، ١٩٥٧).

٦-دي بور، تأريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة : د.أبو ريدة ، (القاهرة ، د.ت).

٧-رسائل إخوان الصفا ، (القاهرة ، د.ن ، ١٩٢٨).

٨-زكي باشا، مقدمة زكي باشا، (القاهرة، د.ن. ١٩٢٨).

٩-شمس الدين الشهرزوري، تاريخ الحكماء نزهة الأرواح وروضة الأفراح، (طهران، د.ن.، ١٩٦٣).

١٠-صلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، (بيروت ، دار إحياء التراث ٢٠٠٠).

١١- طه حسين ، مقدمة رسائل إخوان الصفا، (القاهرة ، د.ن ، د.ت).

١٢-عارف تامر، رسالة جامعة الجامعة، (بيروت، د.ن. ١٩٥٩).

١٣-فؤاد معصوم إخوان الصفا:(فلسفتهم وغايتهم)، ط١ (سوريا، منشورات المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨).

١٤-محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق وتخريج: حسن الأمين،(بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٣٧١هـ).

١٥-مصطفى غالب، إخوان الصفا وخلان الوفاء،(بيروت، دار ومكتبة الهلال للنشر، ١٩٨٩).

ثانيًا-الصحف والمجلات:

١- زين عطوي، الأخلاق عند إخوان الصفا، مجلة الباحث، باريس، العدد ٥٢، ١٩٨٨.

٢- سيد حسين نصر، رسائل إخوان الصفا، ترجمة: سيف الدين القصير، مجلة المعرفة، بيروت، العدد ٥، ١٩٧٨.

ثالثًا- المصادر والمراجع الاجنبية:

1- Encyclopedistes Arabs duive\ xeiecle (Beirut, 1948)

2- A. Tamir, Larealitedes IKhwan alsafa wa KHullan al wafa, (Beirut, 1957).